

صنوانٌ وغير صنوان: قصيدتان طويلتان في مطاردة آفة التدخين والمدخنين

د. ظافر بن علي القرني
أستاذ الهندسة المساحية ونظم المعلومات الجغرافية
جامعة الملك سعود
كلية الهندسة، ص ب ٨٠٠ الرياض ١١٤٢١

الفهرس

١. مدخل
٢. القصيدة المقدمة - بيان شعري
٣. القصيدة الأولى - مسافرٌ في يباب الوهم
٤. القصيدة الثانية - هذي نصيحة من تقطع قلبه

بيان

لا خير في الشعر إذا لم يكن
تغني به التالين عن نجعة
يشقى بها ممن ترى غافل
أو يقعد الساعي على إثرها
وقد يرى الأقوام في غفلة
وهذه الأخرى بلاء له
فالنشء يحيا اليوم في عالم
فاقرأ كتابي إن في نصه
وصفاً لما جرّبت من تجربة
تثار من أطرافها الأتربة
أيامه ليست على موجبة
في كربة عظمى وفي مسغبة
لأنهم لم يذهبوا مذهبه
وغيره منها على مقربه
لا يعرف التآقي به مذنبه
موعظة خالصة طيبة

مسافرٌ في بياب الوهم

أعمى البصيرةَ فينا، أيها البشرُ
يصورون لك التدخين منقبةً
أما تراهم إذا ساءت مواقفهم
مدّت إليه يدُ التحنانِ واحدةً
فيقبل الجاهلُ المغرورُ منتشياً
يداعبُ العلمَ والأخبارَ يسردها
ولم يزل يتلوّى وهو مبتسمٌ
مسافرٌ في بياب الوهمِ ممتطياً
وللدعايةِ شأنٌ لا تسائلني
وهكذا شبكات الحاسبِ امتشقت
كلّ يجمّلُ شيئاً لا جمال به
ونحنُ ما نحنُ إلا من يقول عسى
ونمحض النصح للواعين كي يثبوا
فكلنا أخوةٌ والحق بغيتنا
ألم تر أن للتدخين رائحةً
ولا يُزيل لها ممن تلوذ به
وإنه ينخرُ الأسنانَ من جذرٍ
فظاهر السنِ مصفرٌ وممتلئٌ
قل لي بربك هل قابلتَ ذا دخنٍ
وهل جلستَ إلى من لا يفارقه
المولعون إذا ما الشيءُ أسعدهم
هذا الذي تدرك الأبصارُ من علل
يقول من فعله التطبيب عن ثقةٍ

فكرٌ تمورُ به الأفلامُ والصورُ
عظمى ولا يصدقون الناس ما خبروا
وأحدقت بالفتى الأحداثُ والنذرُ
من التي في حشاها الداءُ يختمرُ
وينفت "الحل" مسروراً فينتشر
وفي الحقيقة لا علمٌ ولا خبر
حتى إذا ما رآه الطفلُ ينبهرُ
ظهر الفراغ فبئس الركبُ والسفرُ
عنه وحسبك ما يبدو ويستترُ
سيفَ الحرايةِ لا تبقي ولا تذر
ويدعي أنه للوعي ينتصر
أن يظفر الحقُّ أو أن يتربّ الغرر
ولا نبور بمن زلّوا ومن عثروا
والنصح ديدننا والفوز والظفر
كريهةً تجعل الأنفاسَ تحتضر
لو يبذل الجهدَ، لا ماءً ولا عطرُ
حتى تقاربَ شكل الإبرة الجُدُرُ
وأسفلُ السنِّ مسودٌ ومنذر
وسنّه سالمٌ ما صابه خور
ولا عوى في حنايا صدره الضرر
أروك ما يفعلُ التدخين والبطر
فكيف ثمّ بما لا يدرك البصر
يا صاحبَ التتنِ ماذا بعد تنتظر

اقلع، فإنني أرى -فيما أقاببه
اقلع ولا تستمع قول الألى غفلوا
يا صاحبَ الأملِ الساعي لبغيته
أما سمعتَ بأرض الله قاطبةً
وأنت من أنت بالأفكارِ مشتعلٌ
وما يُقال عن التدخين مقتضياً
من صوتها يعرفُ الإنسانُ خستها
قال: "المعسلُ" لا تدري بنكهته
ومثله صاحبُ "الغليون" كال به
تسرطنت أمم الدنيا وقام بها
يقول يا قوم جربناه فانتفخت
لكننا لم نزل نسعى كسعيتهم
لا نصدق الناس في بلواه ما عظمت
حتى -على مشهدٍ منا ومحتضرٍ

نياط قلبك بالتدخين تنصهر
إياك فالنارُ في الأحشاء تستعر
مالي أراك بهذا الداء تتحر
كم من ذوي صحةٍ من أجله قبروا
ولست للعقل فيما خلت تفتقر
يقال عن "شيشة" في الجهل تزدهر
نرنو لها وهي للأدواء تعتمر
قلنا "مع السل" سرٌ فيه مختصر
لنفسه الموت وهو الكيس الحذر
مشمراً يبعث التحذير مقتدر
منه القبور، ومنهم فوقها فترا
قبل النضوج ونستهدي بما بذروا
وللنصيحة والإرشاد نبتسر
تساوت البدو في الأهات والحضر

يا من سلمت من الآفات منجبراً
نقول ها أنت في شوال فاهجره
فقال من بعد هذا العام أتركه
ولم يزل في الأمانى وهي حاشدة
يا نافث السمِ إني ضاربٌ مثلاً
لو أن نفثك هذا صبباً في حجرٍ
وظل ما ظل من يسراك مطرداً
وهاجر الطير مذعوراً ومندهشاً
وأصبح القطرُ بالقطرانٍ مختلطاً
فكيف تقوى على هذا البلاء وقد

انظر إلى ذي مقام كيف ينكسر
أما صحبت بشهر الصوم من صبروا
أما محرم لو أبطأت أو صفر
حتى أصاب عيون السادرِ الصفر
هل أنت يا سامع الأمثال مذكر
أو غابة رائداها الطيرُ والمطر
ما قاوم النفثات الحيد والشجر
من هول ما ضمت الأشجارُ والحجر
لا القطرُ يصفو ولا القطرانُ ينحسر
بدا لعينيك أصل الداء والعبير

والحق أبلج لا نبغي به بدلاً
اسمع إلى سنن الهادي تعش علماً
لا يستوي عالمٌ يزداد منزلةً
ولا فتىً يبصرُ العليا فيتبعها
ولا قنوطٌ يُثيرُ اليأسَ في أممٍ
فصاحب المخلصين الصادقين وكن
ولا تساير أناساً لا خلاق لهم
هل يا ترى يستوي قومٌ لهم شيمٌ
وآخرون تولوا بعد سابغةٍ
أولئك القوم من بارت تجارتهم
يا أيها الناس إني قلت محتسباً
ويا رفيقاً يخال القول أزعجه
احسن لنفسك لا تهد الخبيث لها

تحي نواميسه الآياتُ والسور
واقراً بنفسك فيما قالت الزمر
وجاهلٌ كلما يزداد يُحتقر
وآخرٌ يبصر السفلى فينحدر
ومهتدٌ لصلاح الحال ينتظر
بصفتهم ضد ما يطغى ويعتور
لأنعم الله ما صانوا وما شكروا
على الفضيلة لا زادوا ولا قصرُوا
من الرشاد وإن ما أمكنوا مكروا
فيا خسارة ما ساموا به وشروا
ما قلت هل في ذوي التدخين مُزدجر
يود لو أنني أغضي وأعتذر
الخبثُ يُهجر والإحسانُ يُبندر

هذي نصيحة من تقطع قلبه

جاءت هذه القصيدة متفرقة في كتاب "تجربتي مع التدخين: من القرية إلى القرية" بحسب المواضيع المطروحة في الكتاب. وأحببت أن أجمعها هنا ليسهل الإطلاع عليها كاملة دونما فواصل نثرية، فأليك هي:

هي قصة العمر الطويل فهاكها
أنا لم أبالغ في الحديث. وإن بدا
فلأن في التدخين ألف بلية
لو أن موضوع الحديث محبب
لأنتك قافيتي تقل خواطراً
وتدب في كسل الكسول إذا به
لكنما أقوالنا أحوالنا
فإذا جلست إلى أساطين الهوى
وإذا سمعت الميتين وشأنهم
وكذا الضجيج صداه لا يهدي سوى (م) الإزعاج والآلام للآذان
أسمعت يوماً ضجةً تنساب من
فالحمد لله الذي فطر الوجوه
لو شاء أعمى خطتي وبصيرتي
فخذ الكتاب ولا ترد بعلة
مهما كتبنا أو قرأت من الهدى
والوابل السيل العرمرم فعل من
المغريات تنام تحت جفوننا

يأتي الفتى في ضعفه وبجهله
فيصول بالأفكار أضعف صولة
متحمس أعمى من العميان
مثبورة لا شيء في الميزان

ويظن أن الكون أصبح ملكه وهو الغرير بأول الطوفان
جهلٌ خرجنا منه بعد مشقةٍ نبغي رحاب العلم والإيمان
فلربما نُهدى إلى سبل الهدى فنقيم منهجنا بكل مكان
ولربما شطحت بنا أهواؤنا فيعوقنا في الدرب جهل ثاني

اسأل سؤالك موقناً بجوابه ما دمر الإنسان كالدخان
يأتي عليه بكل داءٍ قاتلٍ بعد الخمول وفترة الغثيان
كتليّف الكبد الخطير ولوثة الـ أعصاب والجلطات
والسرطان

وتلوّث الدم واختلال الهضم في أحشائه وتصلّب الشريان
وتلوّث الرئتين والبلعوم والشـ فنتين والعينين والأسنان
فأحذره واهجر من تراه مدخناً لو كان خير الصّحب والخلان
وتجنّب الدّاعي لكل مكيدةٍ لو حفّها بغنيمَةٍ ولسان
فالخبث في حركاته والمكر في سكناته والشر في الإعلان
أوما تراه يصوغه بعنايةٍ ليروق للفتيات والفتيان
فابعد ذوي الإغراء عنك جميعهم وتولّمهم بالصدّ والهجران
وإذا فعلت فما هجرت سوى الردىّ والههم والنكوتين والقطران
وانبذ تجارة تاجرٍ متسلطٍ لم يرع حق إخوةٍ وكيان
باع الفلاح وساح في أضداده ويظنّه من ربّه بأمان
أوننطوي حتى نرى أبناءنا وبناتنا شيئاً من القربان
هذا هو الداء العضال فليتنا نفنى ولا فاز الغوي برهان
التبغ لا تبغ به سبل العلا فسواك في بغيّ به ولعان
فاذا تكالبتنا عليه فبئس بالـ متكالبين بعيدنا والدّاني
وإذا تجمّعت القلوب على الردىّ أضحى الفدا والنصر للشيطان
وإذا تجمّعت القلوب على الهدى لم تعصف الأوطار بالأوطان

فاختر لنفسك عزها وسموها أو هونها ومغبة الخسران

أوتعلم التحريم ثم تعود بعد
هذا هو الخسران في الأموال (م)
وكذاك في الأعراض وهي قميئة
عد العلم للتدخين والهديان
والإيمان والأذهان والأبدان
أن لا تشاب بلوثة وصنان

يا أيها الأبياء إن صغاركم
فتحسسوا أخبارهم، وتتبعوا
هما عاملان إذا حرصت عليهما
فإذا حرصت على الزمان لوحده
وإذا حرصت على المكان لوحده
مستهدفون بصارم وسنان
خطواتهم لكن بكل زمان
أحسننت في الإنشاء والبنيان
فالداء قد يأتي من الجيران
يأتي الردى في هجعة الأكوان

أوما ترى الدخان زاد بلاؤه
قد يخطئ الإنسان في أفعاله
فهو القمين بكل فعل خير
فإذا رأيت معلماً يجفو له
فاعلم بأنك في رحاب متيم
وإذا رأيت معلماً يزهو به
فاعلم بأنك في رحاب متيم
وبلاؤه ضرب من الإدمان
أما "المعلم" صاحب "العنوان"
وهو الحريص على هدى الشبان
ويصدّ جهراً داعي الخذلان
بالفضل والإصلاح والإحسان
في حضرة الزملاء والصبيان
بالفسق والإفساد والعصيان

ابحث عن الجار الكريم وقم له
واهرب عن الفساق والعاصين (م)
فتجاوز الفساق والعاصين (م)
أو قل إذا لم تستسغ ما قلته
هذا يثور بذا، وهذي تلتوي
بالعون ضد تكالب الطغيان
واتركهم لريب تشاكل وتدان
مثل تجاور الزلزال والبركان
كتجاوز البنزين والنيران
في ذا، فتفنى رغم كل تفان

وأهيب بالإعلام أن يأتي على
وأعيذه - والحب ملء جوانحي -
فبلادنا تسعى بكل وسيلة
سنن الهدى والحق بالتبيان
من أن يكون هو الرقيب الجاني
كي تبني الإنسان في الإنسان

اسمع نصائح مخلص، وتولها
ولبعضها أدنى إلى التنفيذ من
النفس نفسك أعطها قدراتها
بالفهم والتطبيق في الميدان
بعض بحسب تباين الأذهان
بأمانة فالزود كالنقصان

لن يستقيم لنا البناء وثم من
إن لم تشارك بالذي أوتيت من
أبدًا، فما أديت فيما عشته
انصر أخاك ولا تهن لو أنه
إن كان في نصر الأولى ظلموا ثوا
وسلامة للمسلمين، فمثله
ومقارف الدخان يظلم نفسه
لوساوس الشيطان وهي حفية
يبغي السرور فينتشي بسجارة
الله كم جلب الشقاء لنفسه
لو أنه أخذ الكتاب بقوة
وتبصرت عيناه في سنن الهدى
لنتفحت سبل السلام أمامه
لكنه أضحي يبيع مآثماً
فلبئس ما يسعى له ولبئس ما
يسعى ليعبث في بناء الباني
خير ومن علم ومن سلطان
حق النمو وواجب العمران
باع الصلوات بأبخس الأثمان
بظاهر في الناس والبلدان
نصر الأولى ظلموا عظيم الشأن
والآخرين، وفاز بالإذعان
بالمحتفين بها وبالولهان
فيلفه ليل من الأحزان
ولأهله والصحب والأخذان
وجثا على ما قاله الطبراني
وأجلها ما أخرج الشيخان
ولسرّه ما سطر الملكان
ويصد أقراناً عن القرآن
يحيى له ولبئس بالأقران

من كل شيءٍ لو ترى زوجان
للمهلكات بذلةٍ وهوان
ونصوّر النكران كالنسيان
تقضي على الآفات والأدران
يحتار عند تداخل الألوان
في أي شأنٍ سعية اليقظان
يستوعب الكلمات دون معان
في رهبةٍ أو رحمةٍ وحنان
من عمره ، في غفلة، عقدان
وبُليت بالمتلعثم الحيران

ما قام شيء في الوجود لحاله
والفقر أسوأ ما يقود شبابنا
أنقاوم السنن التي نحيا بها
ونريده في وثبةٍ عربيةٍ
كيف السبيل ونحن من ضراءه أن
لم يدر ما معنى الحياة ولا سعى
ويقيم في غرف الدراسة حقبةً
عشرون عامًا صامتًا متلقيًا
فإذا أتى يبغي الحياة وقد مضى
غلبت عليه سجيةٌ غُذي بها

انظر إلى الشيطان في رمضان
يستجدي الأوهام كالسكران
يُغدي الأناس كسائر الحيوان
هذا الذي أعميت بات يراني
فيثور في جيشٍ من الأوثان

يا أيها المرتاب في قدراته
في قيده متقلّبٌ مترنّحٌ
أعميته من بعد كان مُبصرًا
أضحى يقول لنفسه ولجنده:
أشدد عليه ولا تحل وثاقه

من يجعل الحمّام كالبستان
هزيمته غير هزيمة الشجعان
فتصيده في أخبت الأركان
الإحساس ذا همٌّ وذا أشجان

كيف السبيل إلى هداية، في الورى
ينتصيد اللحظات كي يلقى التي
يحتار في لمز العيون وحبّها
فيعود منكسر الضمير محطّم (م)

وتقبّل البرهان بالبرهان
نفوا الردى عنهم بصلب جنان
بقيت غصون المتقلات دوان

يا مسلمًا عرف الحقيقة كلها
ورأى تجارب من سمو بعد الهوى
نصف الطريق قطعته حتى ولو

فالجأ لربك في الصلاة فمالكم إلا الدعاء ورحمة الرحمان

هذي نصيحة من تقطع قلبه
لو أن تمّ مسدداً قصد الهدى
لشكرته وردعت نفسي جاهداً
فإذا قبلت نصيحتي فلذاك من
وإذا قرأت نصيحتي ونسيتها
وإذا غضبت وقلت قولاً تائراً
يخشى عليك عقوبة الديان
وعجزت أفعل فعله فهجاني
بالحق دون تعاضم وتجان
حسن الثواب وما فعلت كفاني
فلأن من أنساك قد أنساني
فالشأن شأني والحسام يمانى

كملت قصيدتنا وتم بناؤها
يا عائض القرني قلت مقولةً
"هل كوكب الشرق استردت قدسنا أم هل على المريخ دان داني" ^١
تعمى مع الخذلان همة مبصرٍ لو ظل يضرب في الورى بجران
وإذا زكت ومضت على نهج الهدى تجلو البصيرة همة العميان

١: انظر كتاب "طريقك إلى النجاح" لفضيلة الشيخ الدكتور عائض بن عبدالله القرني.

أ. د. ظافر بن علي القرني